مقدمات التغيير النبوي

من خلال السيرة النبوية الشريفة

تأليف

د. حمزة بن فايع آل فتحي

أستاذ الحديث المساعد بجامعة الملك خالد

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأصلي وأسلم على سيد المرسلين، وقدوة الناس أجمعين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين،

أما بعد،،

فلا تزال الدعوة الإسلامية من حين تراجع الدور الحضاري للأمة، ونشوء التفكك والتنازع الأممي، تعيش فترة من الضعف، وتبحث عن ذاتها وهويتها، والطريق الصحيح لسيرها، وتجاهد في تأسيس هُويتها، وإيجاد كيان قائم ينبثق من المد الشعبي الإسلامي، الذي لا يزال يراهن على بقائه وخيريته.

ومرحلة الصراع تلك جارية ما بين مدٍّ وجزر، وكرّ وفر، ويتعاظم ذلك الحراك حسب المعطيات التاريخية والثقافية المباشرة، ولكن الوضع ازداد سوءًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وللخروج لابد لنا من امتثال المنهج القرآني والنبوي في التغيير وإصلاح المجتمعات. ومع مشكلاتها الداخلية دعوة وفكرًا وإصلاحًا، تعاني من ظلم وتسلط أممي على الإسلام وأهله، كما قال تعالى: **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ)**[1].

وكباحث في السيرة النبوية، ومهتم بالشأن الدعوي الإصلاحي والتغييري، فإني تأملت جوانب سيرته عليه الصلاة والسلام، وطالعت عشرات المراجع المختلفة في السيرة والسنة، ودرسها العبد الفقير في الجامعة والمسجد.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١١٨).

فقد خرجت بهذه النتائج، التي هي مقدمات لكل عمل إصلاحي تغييري، يرتجى إعادة مجد الإسلام، وترسيخ البناء الأممي المسلوب.

وأسميته «مقدمات التغيير النبوي» وكيف استطاع النبي المختار ﷺ تغيير الإنسان، وتجاوز عوائق شديدة، وبناء أمة إسلامية مترابطة، تحكمها القيم والأخلاقيات الثابتة والرائعة.

وأما أسباب اختيار البحث:

١- افتقار المناهج الدعوية إلى الهدي الصحيح دعوة وإصلاحًا.

٢- كثرة العثرات الدعوية، والممارسات المغلوطة، والتي تنأى عن الأدلة والبراهين الصحيحة والمنطقية.

٣- تجديد الاقتداء النبوي في حياة الدعاة والمصلحين.

وأما أشهر الدراسات السابقة في هذا الباب فهي كتب عامة لم تلامس الهدي النبوي بجلاء نحو:

- منهج التغيير الاجتماعي في الفكر الإسلامي لعلي بو دربالة.
- من أجل التغيير، لمالك بن نبي.
- منهج أهل السنة و الجماعة في قضية التغيير بجانبيه التربوي والدعوي لسيد نوح.

ووعي السيرة النبوية الإصلاحية البنائية في هذه المرحلة من حياة الأمة، ضروري جدًّا لتشابه الغربة والبؤس القديم بالحديث، ولأن المنهج النبوي منارة اقتداء، وركيزة تأسيس وانطلاق، كما قال تعالى: **﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾**[1]، وقوله تعالى: **﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ**

(١) سورة الأحزاب، (٢١).

لَا تُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ)[1]، وقوله تعالى: (**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**)[2].

وغيرها من النصوص التي تدل دلالات صريحات على وجوب الاتباع، وقفو المثال والاستلهام الوعظي والتاريخي والفقهي، من تلك السيرة البهيجة العظيمة، سائلًا المولى تبارك وتعالى، أن يمن علينا بحسن الفهم، وصدق الاتباع، وأن يلهم العاملين في الدعوة الإسلامية، ويبارك جهودهم ومساعيهم، ويجعل ما يقدمون حجة لهم يوم القيامة إنه جواد كريم.

(١) سورة آل عمران، الآية (٣٢).

(٢) سورة النساء، الآية (٨٠).

تعريف التغيير النبوي

تدور مادَّة (غَيَّرَ) غالبا في اللُّغة على أصليْن، هما:

-إحْداث شيء لم يكن قبلَه.

-انتِقال الشيء من حالةٍ إلى حالة أخرى.

فمن الأصل الأول: (غَيَّرَه): جَعَلَه غَيْرَ ما كَانَ، و(غَيَّرَه): حَوَّلَهُ وبَدَّلَهُ.

ومن الأصل الثاني: (الغِيَر)؛ أَي: تَغَيُّر الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد.

وفي الاصطلاح من أحسن ما قيل: (الانتقال من وضع أو حالة معينة إلى وضع أو حالة أخرى).

وفي الحالة الدعوية النبوية المراد التغيير والانتقال من حال الضعف للقوة، والوحدة للاجتماع، والقلة للكثرة والانتصار.

وتعرف مقدمات التغيير النبوية أنها(معرفة الوسائل والاستراتيجيات النبوية المستعملة في تغيير المجتمعات)

(١) الدعوة:

وهي عبارة عن عرض للفكرة التي يحملها الداعية أو المصلح، وإطلاع الناس عليها، فرسولنا ﷺ اختصر فكرته في كلمة التوحيد: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»[(١)]، وعرض للناس حقيقة الإسلام، وأنه دين الله الحق، واستخدم في ذلك الحجة والبرهان، والعقل والواقع، مؤكدًا عجز هذه الأوثان وانحطاطها عن أن تخلق أو تغير شيئًا، فضلًا أن تقصد بالعبادة والتوجه!!

(١) المسند، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١ م، رقم الحديث: (١٦٠٢٣)، (٢٥/ ٤٠٤) وقال الأرنؤوط: «صحيح لغيره».

وغالب القرآن المكي ينصبّ في هذا الاتجاه، وهو ترسيخ العقيدة، وتقبيح شأن المشركين في اتخاذهم أولياء من دون الله ﷻ، وأنهم سيكفرون بهم يوم القيامة.

«فالقرآن المكي كان يهدف إلى محاربة الضلال في العقيدة والسلوك، فجاء بموضوعات تخدم هذا الغرض من التبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، لذلك كانت آياته قصيرة العبارة، حادة سريعة الإيقاع عنيفة الوقع... والدعوة إلى الإسلام في بدء أمرها كانت لا تطلب من الناس وقوفًا طويلًا لتأملها فساقت لهم الإرشاد والتوجيه الإلهي في سورة وآيات قصار لسهولة فهمها وسرعة استيعابها؛ لأنه كان بصدد تربية أمة خالية من أسس التربية القويمة، فخاطبتهم بأوضح العبارات وأوجز المعاني كما يُفعل الآن في تربية النشء، حيث يتدرج معهم المربي من تصور وإدراك الحرف الواحد إلى الكلمة الواحدة السهلة التركيب إلى الجملة القصيرة، وما يزال يرقى بهم من طور إلى طور حتى يصل بهم إلى فهم الفقرات ودراسة النصوص، والمتأمل في قصار السور المكية يتبين هذه الحقيقة دون ما شك أو ريب »[1].

وفي خضم البيان النبوي للأساس الدعوي، وهو توحيد الله بالعبادة، لم يخلط ﷺ ذلك المسار بشيء من الشرائع، بل ركّز التركز الكامل، وصرف جهده بالكامل إلى هذه القضية مدة ثلاث عشرة سنة، مما يعني البدء بالأساسيات والأصول عند التقديم لكل عمل دعوي وتغييري، وما دونه يسهل إذا صح الأصل، وحظي بالوفاق والقبول.

وقد كان من الحكمة التشريعية تأخير الأحكام والشرائع إلى الوضع المدني الجديد، حيث تمّت الهجرة، وحصلت النواة، وقامت الدولة الحديثة.

لقد استطاع رسول الله ﷺ أن يجلي قضايا التوحيد، ويكشف سر دعوته من الأيام الأولى للدعوة الجهرية، وتسامع الناس به، وسيأتي معنا في المقدمات التالية، بعض الوسائل التي استخدمها في تسهيل شيوع الفكرة الدعوية وتضخيمها، بحيث تصبح

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، لعبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، (١/ ٢٤٤).

حديث كل الألسنة في منطقة مكة وما جاورها، المهم أنه بدأ بالدعوة على الأخ والزوجة والصديق والقريب والحميم إلى أن فقه الناس المراد النبوي من ذلك كله.

(٢) المناصحة:

وهي التي مورست بطريقة مخصوصة، وهادئة على أفراد قريبين من الداعي، أو سنحت الفرصة لمخاطبتهم فرديًّا دون عموم الناس، كما صنع ﷺ مع زوجته خديجة رضي الله عنها وأبي بكر ﷺ وأناس آخرين، وفائدة هذا الأسلوب أنه وسيلة تأثيرية في المدعو، يشعره بمزيد من الاهتمام والشأن، ويجعله أكثر تفكيرًا أو قبولًا من الخطاب الجماعي في ملأ من الناس.

وفيها من إقامة الحجة والتبيين المباشر، والدنو الجاذب ما لا يخفى، فهي مقدمة للتأثير بالاحتواء، وتصنع ما لا تصنعه الخطب الجماعية والقنوات المليونية، ويحسن استخدامها مع الأقربين والملازمين، وذوي التأثير الاجتماعي والقيادي والمالي، ممن يُرجى فيهم قبول المطروح والتمسك به، ودفعه إلى الأمام خطواتٍ وخطوات.

والمناصحة الخاصة، في غالب أحوالها تكون موشاة بنقوش الحب والود والإخلاص، وتكتنفها آصرة الرحمة والإشفاق، وهذا كان شيئًا ظاهرًا وملموسًا في حياة رسول الله ﷺ، ليس مع خواصه فحسب، بل مع سائر الناس، كما قال تعالى: **(فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا)**[1].

قال الشيخ السعدي: «**(فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ)** أي: مهلكها، غمًّا وأسفًا عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرًا لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم، فلم يهتدوا، فإشغالك نفسك غمًّا وأسفًا عليهم ليس فيه فائدة لك، وفي هذه الآية ونحوها عبرة، فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله

(١) سورة الكهف، الآية (٦).

عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فبها ونعمت، وإلا فلا يحزن»[1].

(٣) السرية:

وهي تقدمة ضرورية لكل مجتمع يرفض الأطروحات الجديدة، التي تناقض أفكاره وثقافته، كمجتمع وثني في مكة، وبلا ريب أنه لن يقبل بدين جديد، ينزع القدسية عن أصنامه التليدة، وأوثانه العتيقة من موروث الآباء والأجداد **(بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ)**[2].

فلابد حينئذ من الإسرار بالدعوة الجديدة، والكلمة المغايرة للإلف العام، لتؤسس لها نواة، وتجمع لها أفرادًا، وتقنع بها فئامًا من الناس، ولتكون في مأمن عن البطش المباشر بها، إذا ما عُلمت وكُشفت للناس!! وربما صدقت فيها هنا الحكمة النبوية المتوارثة عن سيد الخلق ﷺ: «**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود**»[3].

قال المناوي: «**بالكتمان**» بالكسر أي: كونوا لها كاتمين عن الناس، واستعينوا بالله على الظفر بها ثم علل طلب الكتمان لها بقوله: «**فإن كل ذي نعمة محسود**» يعني: إن أظهرتم حوائجكم للناس حسدوكم فعارضوكم في مرامكم وموضع الخبر الوارد في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠ م، (ص٤٧٠).

(٢) سورة الزخرف، الآية (٢٢).

(٣) المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، د.ت، رقم الحديث: (١٨٣)، (٢٠/ ٩٤)، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سعيد بن سلام العطار، قال العجلي: لا بأس به، وكذبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات، إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ». انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤١٢هـ (٨/ ٣٥٧).

التحدث بالنعمة ما بعد وقوعها، وأمن الحسد، وأخذ منه أن على العقلاء إذا أرادوا التشاور في أمر إخفاء التحاور فيه، ويجتهدوا في طي سرهم. قال بعض الحكماء: من كتم سره كان الخيار إليه ومن أفشاه كان الخيار عليه، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه، ومنع من بلوغ مأربه، ولو كتمه كان من سطوته آمنًا، ومن عواقبه سالمًا، وبنجاح حوائجه فائزًا، وقال بعضهم: سرك من دمك، فإذا تكلمت فقد أرقته»[1].

وفي أزمنة الحكم الشيوعي للولايات الإسلامية، كانت السرية مبدأ خالصًا وأصيلًا عند المسلمين هناك إلى أن تم لهم الفرج، والأنظمة القمعية الشمولية في هذا العصر ليست ببعيد عن مطاردة الإسلاميين وإلحاق كل التهم المزيفة بهم.

فهي وسيلة يفرضها الواقع المرير لأوضاع الإسلام، وحتى الانقلابات العسكرية المقامة في أكثر البلدان، ومنها العربية، سبقتها تنظيمات سرية، ومسالك خفية إلى أن بلغت أوجها، وحققت مرادها.

فليس ذلك بحكر على زمر الشر في ظل قمع سائد على جميع الطوائف المجتمعية، والله المستعان.

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ، (١/ ٤٩٣).

(٤) التنظيم:

وهو عبارة عن المحضن التربوي والتثقيفي والتأليفي بين أفراد الدعوة والمقتنعين بها، وهذا قد صنعه ﷺ لما اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم، نقطة اجتماع أولي للتربية والإعداد، حيث يُقرأ القرآن الكريم، ويتلاقى الأتباع، ويتم التعارف، وتُتلقى التوجيهات.

وكان ذلك إبان الدعوة السرية التي استمرت قرابة ثلاث سنين كما ذكر ابن إسحاق في سيرته، وعنصر الحكمة والتوخي والحذر كان بارزًا في الاختيار بحيث لا يلفت الانتباه، ولا يثير القرشيين ضده، والفكر التنظيمي يغذيه القمع السائد والأثر الحميد للعمل المؤسسي؛ لأن مثل تلك الجماعة في المدرسة الأرقمية بلا ريب، إنها ستنطلق بدافع الوحدة التنظيمية، ذات البعد المؤسسي والمنظم لكل خطواتها وبرامجها، فليست ببدع في المجتمعات والثقافات، بل هي من بدهيات العمل الفردي، حينما يتحول إلى فكرة مجتمعية، وقد قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة، يبذلون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس فهم خير الأمم للخلق، والخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»[٢].

وقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١١٠).

(٢) مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، (١٠/ ٥٠٩).

(٣) سورة المائدة، الآية (٢).

قال ابن كثير: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى»[1].

وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

قال السعدي: «أي: وليكن منكم أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله **(أُمَّةٌ)** أي: جماعة **(يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)** وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه **(وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)** وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه **(وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)** وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله **(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ)** إلخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن

(١) تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، (٢/ ١٢).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٠٤).

المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾»[1].

وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

قال الطبري: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ يقول: أولئك الذين هذه صفتهم جند الله وأولياؤه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ يقول: ألا إن جند الله وأولياءه ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يقول: هم الباقون المُنْجحون بإدراكهم ما طلبوا، والتمسوا ببيعتهم في الدنيا، وطاعتهم ربهم»[3].

وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[4].

وهذا التنظيم سيتيح مساحة هائلة للتخطيط والإعداد، والرصد والمتابعة لكل تحركات النواة الدعوية ومشكلاتها، وسيقوي من عضد الأعضاء وساعدهم، ويمكن لفكرتهم ودعوتهم، إلى أن يتم الفتح، ويحصل الانتشار والله على كل شيء قدير.

(٥) الروحانية

لا يمكن لأحد أن يشك بأن النبي ﷺ كان قمرًا روحانيًا يشع منائر الهدى، والحكمة، وقد أدبه ربه بأحسن الخصال وأزكاها ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[5].

قال السعدي: «أي: عاليًا به، مستعليًا بخلقك الذي من الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم... وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، (ص١٤٢).

(٢) سورة المجادلة، الآية (٢٢).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، (٢٣/ ٢٥٨).

(٤) سورة العصر، الآية (٣).

(٥) سورة القلم، الآية (٤).

عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ)[1]، (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ)[2] الآية، (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)[3]، وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثات على الخلق العظيم، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً لينًا، قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة من استقضاه، جابرًا لقلب من سأله، لا يحرمه، ولا يرده خائبًا، وإذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسًا له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ»[4].

وقال له في الفترة المكية: (قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً*نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً)[5].

قال ابن عاشور: «وتخصيص الليل بالصلاة فيه لأنه وقت النوم عادة، فأمر الرسول ﷺ بالقيام فيه زيادة في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة الله، ولأن الليل وقت

(١) سورة الأعراف، الآية (١٩٩).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

(٣) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، (ص٨٧٨).

(٥) سورة المزمل، الآيتان (٢، ٣).

سكون الأصوات واشتغال الناس فتكون نفس القائم فيه أقوى استعدادا لتلقي الفيض الرباني»[1].

وعلمه مما علمه **(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا*وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا)**[2].

قال السعدي: «وقوله: **(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا)** أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح. **(وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا)** أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب، والاقتراف للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسيها»[3].

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يذكر الله على كل أحيانه»[4]، «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله، في اليوم مائة مرة**»[5]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: «قال أبو جهل: أيعفر مُحَمَّد وجهه بين أظهركم؟»[6]. وهذا التعفير له دلالته التربوية والنفسية على مشاعر المكيين.

---

(١) التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ، (٢٩/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٢) سورة الشمس، الآيتان (٩، ١٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، (ص٩٢٦).

(٤) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت، كتاب: الحيض، باب: ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم الحديث: (٣٧٣)، (١/ ٢٨٢).

(٥) الصحيح، لمسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم الحديث: (٢٧٠٢)، (٤/ ٢٠٧٥).

(٦) مسند البزار (البحر الزخار)، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٩م، رقم الحديث: (٩٧٧٥)، (١٧/ ١٦٠).

وكان قبل الوحي يتحنث في غار حراء، ويتفكر في ملكوت السماوات والأرض، وعرفه قومه بحسن الخلق، وصدق الحديث، وطيب الجوار، ولم يستطيعوا اختراق روحانيته المعروفة لديهم، وكل ما قالوه يدركون كذبه وفساده، وأنه أطهر الخلق فيهم، وأزكاهم نفسًا وشمائل.

ومثل هذه الروحانية سُلّم يعرج عليه الداعية إلى أعالي أفكارهم وخصوصياتهم، وتكون بمثابة السحر النافذ إلى نفوسهم، فلا يجدون مناصًا من الانقياد والخضوع، فضلًا عن الإصغاء المبدئي والشوق الأولي.

وكل مصلح إسلامي يحتاج هذه النفس الروحانية؛ ليسهل جريانه في بحر الحياة، ولتكون زادًا لكل معوقات الطريق، وملهمًا له من الله بالتوفيق والتأييد، فالله مع عباده الداعين إليه بالتوفيق والتسديد وحسن العاقبة، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[2]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[3].

ولما انطلق موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون الطاغية قال لهما تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾[4]. فُسّرت بأن لا تقصرا في ذكر الله والاعتماد والتوكل عليه.

وهي بلا شك دفقات معنوية وتأسيسية للداعية إلى الله، وتعزز من صدقه ووضوح فكرته، وقد كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه، ويقوم الليل، وانتقل هذا السلوك إلى صحابته ﷺ، فكانوا أهل ذكر وتأله وعباده.

وما سبق يتضمن أهمية حسن الصلة وتمتينها بين الداعية وربه ﷻ، من إقامة للفرائض، والاستكثار من النوافل، والاشتغال بالأذكار، والمداومة على الاستغفار،

(١) سورة البقرة، الآية (٢٤٩).

(٢) سورة النحل، الآية (١٢٨).

(٣) سورة الطلاق، الآية (٢).

(٤) سورة طه، الآية (٤٢).

وكثرة التلاوة للقرآن، ومناجاة لله، والانطراح بين يديه، وبث الشكوى إليه سبحانه، وغير ذلك من القربات والطاعات.

وهذه الصلة الوثيقة بين الداعية وربه من أبرز سماته وصفاته، وهي زاده وسبب ثباته واستمراره في طريق الدعوة إلى الله الشاق، فينبغ على الدعاة إلى الله تعالى أن يكونوا قدوة في هذا، مقتدين بالنبي ﷺ.

(٦) الجماهيرية:

مرحلة أخرى يحتاجها الداعية لإشاعة فكرته، وإذاعة الأصل الذي يتبناه، وهذا مدروك في سيرته ﷺ، من حين ما قام بجمع عشيرته الأقربين، كنقطة جماهيرية أولية؛ استجابةً لقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1].

حيث جمع قومه عدة مرات، وأنذرهم وشرح لهم دعوته، ليكونوا حصنًا له ولدينه الحق الجديد، وليحظوا بشرف المتابعة والانقياد للأمر الإلهي.

قال السعدي: «﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له: أحسن إلى قرابتك؟ فيكون هذا خصوصًا دالًّا على التأكيد، وزيادة الحق، فامتثل ﷺ، هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يُبْق صلى الله عليه وسلم من مقدوره شيئا، من نصحهم، وهدايتهم، إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض»[2].

وتكشف أحداث السيرة هنا أنهم كادوا يتعاطفون معه، لولا معارضة عمه أبي لهب، لكنهم وعوا الرسالة المقصودة، ولذلك حموه أشد الحماية، ودخلوا معه في حصار الشعب المشهور ثلاث سنين !! وكان لعمه أبي طالب الجهد الأكبر في حمايته، والنصح له إلى أن وافته المنية.

(١) سورة الشعراء، الآية (٢١٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، (ص٥٩٩).

وحينما أتى الأمر الإلهي بالصدع العلني بالدعوة **(فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ)**[1] جمعهم رسول الله ﷺ على جبل الصفا، وقال كلماته المشهورة: «**إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[2] ورد عليه عمه أبو لهب بالرد القبيح المستشنع، وكان ذلك نوع من الجماهيرية المطلوبة لشيوع الفكرة وتمريرها في الناس.

وكان ﷺ بعد الاستعلاء بالدعوة، يعرض نفسه على قبائل العرب يلتمس منهم النصرة والمؤازرة، وفي ذلك من الحرص على الأتباع والتجمهر وكسب الأنصار ما لا يخفى على كل ذي لب.

ولهذا ينبغي على العالم الشرعي في درسه العلمي أن يؤسس للبعد الاجتماعي في دروسه ونشاطاته، وليجعل من ذلك الدرس المتواضع عملًا مؤسسيًّا دعويًّا يبتغي به وجه الله، وحماية دينه، وتأسيس القاعدة العلمية الصلبة في المجتمع الذي يقطنه.

(٧) الربانية:

وهذا أعظم سلاح يملكه الدعاة والمصلحون الإسلاميون، فبحوزتهم وثيقة ربانية ووحيًّا قرآنيًّا باهرًا، يخطف قلوب العباد، وتتهاوى أمامه حججهم وترهاتهم، كما قال تعالى: **(فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا)**[3]، وقال تعالى: **(الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ**

(١) سورة الحجر، الآية (٩٤).

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الشعراء، رقم الحديث: (٤٤٩٢)، (٤/ ١٧٨٧)، والصحيح، لمسلم، كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ**﴾، رقم الحديث: (٢٠٨)، (١/ ١٩٣).

(٣) سورة الجن، الآيتان (١، ٢).

فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[1]، وقال تعالى: (إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ*وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ)[2]، وقال تعالى: (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[3].

وقال ﷺ: «**ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به**»[4]، وقال ﷺ: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض. وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[5].

وما سبق يكشف عظمة هذا الكتاب، وشرفه وجاذبيته، وتحديه لسائر الخلق، فكتاب بهذا الوصف جدير بالدعاة استلهامه والاستعصام به على كل الأحوال، وليوقنوا أنه مفتاح التغيير والتأثير، وأنه كافٍ في إحداث التحولات المجتمعية والإستراتيجية إذا حُمل بصدق وقوة، واتُّخذ نبراسًا ومنارة للدعاة السائرين. قال تعالى: (خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[6].

---

(١) سورة فصلت، الآية (١).

(٢) سورة الطارق، الآيتان (١٣، ١٤).

(٣) سورة الإسراء، الآية (٨٨).

(٤) الصحيح، لمسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ، رقم الحديث: (٢٤٠٨)، (٤/ ١٨٧٣).

(٥) سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، أبواب المناقب، باب: مناقب أهل بيت النبي ﷺ، رقم الحديث: (٣٧٨٨)، (٥/ ٦٦٣) وقال: «حديث حسن غريب».

(٦) سورة البقرة، الآية (٦٣).

ووعي الداعية لهذا المعنى، يجعله يشعر بعميق الاعتزاز والاستيثاق من نصر الله تعالى؛ لأنه يسير بوحي رباني، يتحدى الله به الخلق، وجعل فيه إشعاعات التأثير والجاذبية، بحيث لا يمكن لكل مكذب ومعاند أن يحاربه، بل إن مشركي مكة لما سمعوه، خُطفت أبصارهم وخضعت نفوسهم، وسجدوا لله بغير تمنع، كما صح بذلك الحديث، عندما تلا رسول الله سورة النجم سجد المشركون والجن والإنس(١).

ولا يزال التحدي قائمًا بهذا القرآن العجيب إلى يوم القيامة، والدعاة بحاجة ماسة إلى تلاوته وتفسيره للناس بطريقة عصرية؛ لأن تأثيره نافذ، وإعجازه آسر، ولا يكاد يسمعه أحد إلا انقاد له، برهانًا من الله وحجة على خلقه.

(٨) المنطقية:

الخطاب النبوي كان خطابًا منطقيًّا في قضيته الأولى وهي التوحيد، وفي كونه يعزف على نقض العقيدة الوثنية عقلًا وحسًّا، فالله خالق الخلق ورازقهم، ومن ثم فهو المستحق بالعبادة، وهم يعترفون بذلك: **(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ)**(٢)، وقال تعالى: **(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ)**(٣).

ولم تأت الشريعة الإسلامية بمحالات العقول، وإنما جاءت بمحارات العقول، كما قال ابن تيمية وغيره(٤).

عن عمران بن حصين، قال: قال النبي ﷺ لأبي: «**يا حصين كم تعبد اليوم إلهًا**»؟ قال أبي: سبعة، ستة في الأرض وواحدًا في السماء. قال: «**فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك**»؟

---

(١) الجامع الصحيح، للبخاري، أبواب سجود القرآن، باب: ما جاء في سجود القرآن وسنتها، رقم الحديث: (١٠١٧)، (١/ ٣٦٣)، والصحيح، لمسلم، كتاب: باب: رقم الحديث: (٥٧٦)، (١/ ٤٠٥).

(٢) سورة الزخرف، الآية (٨٧).

(٣) سورة لقمان، الآية (٢٥).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٢/ ٣١٢).

قال: الذي في السماء. قال: «**يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك**». قال: فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال: «**قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي**»(١).

وقد قال بعض الإصلاحيين المعاصرين: إن القرآن الكريم معجزة عقلية، وهذا بما قررناه صحيح مستقيم، وفي القرآن من الحجج العقلية والبراهين التفكيرية ما يجلي جوانب العقيدة والسلوك والاجتماع في حياة الإنسان.

خذ على سبيل المثال كثرة مواد الفكر والعقل والتأمل في القرآن: **(يَعۡقِلُونَ)**، **(يَتَفَكَّرُونَ)**، **(يَتَذَكَّرُونَ)**، **(أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ)**، **(لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ)**.

وتنصيصه على مركز الفكر الرئيسي وهو اللب والفؤاد: **(وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ)**(٢)، وقوله تعالى: **(لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ)**(٣).

وفي قوله تعالى في سورة فاطر تدريب عقلي عجيب: **(قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ)**(٤).

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «ومعنى الكلام: لِيتفكرِ الإنسانُ منكم وحده، ولْيَخْلُ بغيره، ولْيُناظِر، ولْيَسْتَشِر، فَيَسْتَدِلَّ بالمصنوعات على صانعها، ويُصدِّق الرسول على اتبّاعه، ولْيَقُل الرجلُ لصاحبه: هَلُمَّ فلْنَتَصادق هل رأينا بهذا الرجل جِنَّة قَطّ، أو جرَّبْنا عليه كَذِبًا قَطّ»(٥).

---

(١) السنن، للترمذي، أبواب الدعوات، باب، رقم الحديث: (٣٤٨٣)، (٥/ ٥١٩) وقال الترمذي: «هذا حديث غريب».

(٢) سورة النحل، الآية (٧٨).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٩٠).

(٤) سورة سبأ، الآية (٤٦).

(٥) زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ، (٣/ ٥٠٣).

وكان ﷺ يتحرك دعويًّا بمنطق عقلي راقي، وبحكمة متأنية عميقة، يركز على الوسائل السلمية في الدعوة، ويتجنب المصادمة وإعلان القتال **(كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)**(١).

وفي بيعة العقبة الثانية، والنفوس متحمسة بهذا اللقاء التاريخي الفريد، يرفض طلب العباس بن عبادة بن نضلة الميلان على أهل مِنى بالسيوف ويقول ﷺ: «**لم أؤمر بذلك**»(٢).

(٩) المصداقية:

وهذه مقدمه تفرزها الروحانية المتعلق بها الداعية إلى الله تعالى، لاسيما وهو يأوي إلى ركن شديد، حلّاه بحلية القرآن، وأورثه أعظم ميراث داخله، يدعو الناس إليه بكل عزة وثقه واطمئنان.

فهذا الكتاب العزيز، لا يزال محور التحدي والإعجاز من حين نزوله إلى يوم القيامة، ولم يستطع مخلوق أن يناقضه فضلاً عن الإتيان بشيء من مثله، لا في موضوعاته أو أفكاره أو تشريعاته أو آدابه ولغته وبلاغته، كما قال تعالى: **(لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ)**(٣)، وقال تعالى: **(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا)**(٤).

فهو نص حق صادق مبين، وجاء به من اتصف بصدق الحديث، ومكارم الأخلاق، وعرف في العصر الجاهلي بالصادق الأمين، كل ذلك يستدعينا إلى وعي هذه المقدمة التغييرية، وهي المصداقية التي تكتنف الداعية من ناحيتين:

الأولى: رسالته النورانية المتمثلة في القرآن والسنة.

---

(١) سورة النساء، الآية (٧٧).

(٢) المسند، لأحمد بن حنبل، رقم الحديث: (١٥٧٩٨)، (٢٥/ ٩٤) وقال الأرنؤوط: «حديث قوي».

(٣) سورة فصلت، الآية (٤٢).

(٤) سورة النساء، الآية (٨٢).

الثانية: الروحانية التي تبعث في نفسه الصدق والإخلاص والحب والإصرار.

وكلما كان الداعية صادقًا في حمله لفكرته، وفي حسن أدائها، والتضحية لأجلها، كان عطاؤه مثمرًا، وجهوده ناجحة، ولن يخيب الله صادقًا استعصم به، ولاذ بدينه وشرعه.

وهذه المصداقية النبوية، لم يستطع كبار رجالات مكة إنكارها إلا بدافع الحسد، وفقدان المجد والشرف، كما قالها أبو جهل بن هشام المخزومي في خبره المشهور مع المغيرة بن شعبة، وكيف أنه كان يسمع القرآن خفية، مبهورًا بحسه وحسنه، فقال لمغيرة لما سأله: فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم أطعموا فأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي، والله لا أفعل[1] !!!

وفي قصة هرقل عند ما سأل أبا سفيان ﷺ قال: ماذا يأمركم ؟ قلت: يقول: «**اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيء واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة**»[2].

ففي قصة هرقل مع أبي سفيان ﷺ استدل بصدقه على صحة نبوته.

(١٠) الجاذبية:

وهي عناصر مركوزة في الدعوة الإسلامية من خلال ما يلي:

أولًا: نورانية الوحيين وجمال موضوعاتهما.

---

(١) المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ، رقم الأثر: (٣٥٨٢٩)، (٧/ ٢٥٥).

(٢) الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث: (٧)، (١/ ٧)، والصحيح، لمسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم الحديث: (١٧٧٣)، (٣/ ١٣٩٣).

ثانيًا: سحر حسن الخلق الذي جاء به النبي ﷺ وأكده للمسلم، فكيف بالداعي المربي والمصلح المستنقذ، قال ﷺ «**إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(١)، وقال ﷺ: «**إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»(٢).

فالدعوة والأخلاق صنوان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فلا تصح الدعوة ولا ترشد وتكمل في أسلوبها وطريقة عرضها إلا بالأخلاق، ولا يثمر الخلق الفاضل إلا خيرًا، إذ يكون مدعاة إلى الرشد بطريق القدوة، فالخلق الفاضل موضوع الدعوة ومقصودها وغايتها ووسيلتها، وهو أيضًا أسلوب في إيصال مضامين الدعوة إلى الناس.

والخلق الفاضل هو المجال الأكبر من مجالات الدعوة، فهو المطلب الأساسي للدعوة في مختلف مجالات الحياة، في المجال العقدي والاجتماعي والاقتصادي والفكري والسياسي والتربوي، بل إن الرسالة الخاتمة جاءت داعية لمكارم الأخلاق.

فبعثة النبي ﷺ من غاياتها تربية الناس على الأخلاق الفاضلة في معتقداتهم وأقوالهم وأفعالهم، وهذا إن دلَّ فإنه يدل على كمال الشريعة الإسلامية وصلاحها لكل زمان ومكان، ومن هنا كان لزامًا على الدعاة إلى الله تعالى التركيز على التربية الأخلاقية لأنفسهم أولاً، ثم تربية الناس عليها.

ويزخر القرآن الكريم وكذلك السنة المطهرة بالعديد من المبادئ والأسس التي تنير الطريق للفرد المسلم وللمجتمعات المسلمة لتحقيق غايتها من الوجود، فهناك مبادئ التربية الخلقية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والجنسية والروحية والجسمية، للوصول بالإنسان إلى غاية خلقه ووجوده، وتحقيق دوره في الحياة.

---

(١) المسند، لأحمد بن حنبل، رقم الحديث: (٨٩٥٢)، (١٤/ ٥١٣)، وقال الأرنؤوط: «صحيح».

(٢) سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، كتاب: الأدب، باب: في حسن الخلق، رقم الحديث: (٤٧٩٨)، (٧/ ١٧٦) وقال الأرنؤوط: «صحيح لغيره».

وتجلّت أخلاقه واقعًا عليه الصلاة والسلام، في تعاملاته مع أصحابه والعمال والخدم والجفاة والأطفال والمشركين، وكيف أنه كان السمح السهل ذا الخلـق العظيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2].

قال السعدي: «أي: برحمة الله لك ولأصحابك، منَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي: سيئ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: قاسيه، ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾؛ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ. فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالا لأمر الله، وجذبا لعباد الله لدين الله»[3].

فرحمة الداعية وإشفاقه على الناس ستجعل لخطابه تأثيرًا وجاذبية في أذهان الخلق، مما يعني عقد ميثاق التغيير الأولي، ويزيد على ذلك حسن منطق الداعية وفصاحته، وقوة حجته وإقناعه التي يؤتيها الله من شاء من عباده، وللتمثيل على نورانية الوحيين ما حصل من تأثر عتبه بن ربيعة لما استمع صدر سورة فصلت من رسول الله ﷺ.

(١) سورة القلم، الآية (٤).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، (ص١٥٤).

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ...)[1].

تغير وجهه، وانخلعت روحه، وانبهر حاله، من وقع ما سمع من الآيات البينات، والبراهين الناصعات، التي توحي صراحةً بنبوة محمد ﷺ، وبعظمة ما جاء به من نور وبيان، حتى قال مشركو مكة لما عاد لهم «لقد جاءكم عقبة بغير الوجه الذي راح به» وقالوا لما نصحهم وحذرهم: «لقد سحرك يا أبا الوليد!!».

(١١) الدائبية:

المتمثلة في شحذ القوة الجسمانية، المتفاعلة مع ما تحمله روحًا وعطاءً، إذ هي نفسية عاملة جادة، لا تعرف الكسل ولا تستسلم للملل، وتدفع كل ذلك بالمحبة الصادقة، والعمل الدائب، وهذه الدائبية تأخذ أشكالًا شتى منها:

١) درس أسبوعي عام.

٢) تفقيه للنخبة والخواص.

٣) منبر جمعة وهاج.

٤) تأليفات معينة، وبيانات علمية واضحة.

٥) خدمات خيرية وإصلاحات اجتماعية.

(١) سورة فصلت، الآيات (١-٩).

٦) أرضية الكترونية حثيثة.

وليس بالضرورة حيازة الداعية المصلح لكل ذلك، وإنما يصيب ما يستطيع منها، ويتفنن في الجهد الذي يستطيعه ويبلغه الله فنه وإتقانه. قال تعالى: **(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ)**[١]، وكما قال موسى عليه السلام: **(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)**[٢].

والمقصد أن يخدم الداعية الجهة التي يتناولها ويظهر فيها جده وإتقانه، بحيث يجعلها همه ليلًا ونهارًا، وحضرًا وسفرًا، كما قال نوح عليه السلام: **(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝)**[٣].

هذا هو الجهد الدائب، والهم الإصلاحي المتفرد، الذي يتنوع ويتفنن، ولا يمل ولا يعرف الكسل والضجر، وهكذا كان رسولنا ﷺ أجود الناس، يعلّم صحابته، ويطعم المساكين، ويخدم السائلين، ويغشى منازل القرشيين، ويلتقي الحجيج دون كلل أو ملل، ولما أوذي منهم صبر وقاوم، وعاود الدعوة مرة أخرى، وانطلق إلى الطائف بكل همة ومضاء، ولم يتطرق إليه الكسل أبدًا!!

(١٢) الاجتماعية:

وهي معنى زائد على الروحانية الذاتية، يقوم على حب الإحسان للآخرين، وخدمتهم ودعم قضاياهم، وهو ما جسدته خديجة رضي الله عنها في قصة بدء الوحي عندما قالت: «كلا والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتَحملُ الكَل، وتكسب

(١) سورة البقرة، الآية (٦٠).

(٢) سورة القصص، الآية (٣٤).

(٣) سورة نوح، الآيات (٥-٧).

المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[(١)]، فهذه غالبها جوانب اجتماعية إحسانية، أو خدماتية بالتعبير المعاصر، ومن شأنها أن تحدث أثرًا في حياة الناس والمخدومين، ويكون للطرح الجديد وقع معين في نفوسهم يحتويهم، ويعدهم أنصارًا ورجالات تستقوي بهم الدعوة الإسلامية والحركة الإصلاحية.

ومن هذا المنطلق نحن ضد انزواء الداعية والمصلح، واكتفائه بالتأليف وإصدار الفتاوى والبيانات من خلال مكتبه أو موقعه الإلكتروني، بل لابد أن تكون له لمسات اجتماعية، وتحركات خيرية، تدفع بدعوته لأرقى الأماكن، ونشر كلمة الحق في كل صقع وقطر.

وقد ارتسم ﷺ هذا المنهج في مكة والمدينة، ولم يتركه أبدًا الآباد لإدراكه لأهميته في تجسيد سخاوة الداعية والمصلح، ولذلك أعطى وجهاء العرب وأعيانهم غنائم حُنين، وكان هو أفقر الناس وأزهدهم عنها، بل سماها «لُعاعة» وبعث من خلال تلك الصنائع المعروفية والهبات النبوية، ما صرح به أحد الأعراب «أي قوم أسلموا، فوالله إن محمدًا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر!!»[(٢)].

(١٣) الواقعية:

وهي أن ينطلق الداعية حسب المعطيات الواقعية أمامه، ويحاول أن يتكيف معها، ويستفيد من مخرجاتها، ولا يتجاوز معوقاتها بطريقة حدية، أو تخيلية، بل لا بد من مرونة ووعي، وتدرج في الطرح والممارسات، ويمكن أن نلخص الواقعية النبوية من خلال ما يلي:

---

(١) الصحيح، للبخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث: (٣)، (١/ ٤)، والصحيح، لمسلم، كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث: (١٦٠)، (١/ ١٣٩).

(٢) الصحيح، لمسلم، كتاب: الفضائل، باب: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال لا وكثرة عطائه، رقم الحديث: (٢٣١٢)، (٤/ ١٨٠٦).

(١) انسيابية الشريعة مع وضعية الناس، وقدراتهم وعقولهم، بحيث لا تشقهم ولا ترهقهم، فلا يكاد أحد يسمع عن الإسلام، أو يعاين قضاياه، إلا ويؤمن بيسره وسهولته، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١].

(٢) معايشة الرسول ﷺ لكل ذلك الواقع بكل مصاعبه وتحدياته ومساوئه ومحاسنه، مراعيًا تفاوت الناس في ذلك، وحرصهم الدنيوي على الجاه والمال والغلبة.

(٣) إن الدعوة كانت عملية استنقاذية للناس من واقع مظلم وزائغ ومفتئت على حقوق الفقراء والمساكين، فجاء رسول الله ﷺ لحل مثل ذلك، ونشر قيم العدل والرحمة والمساواة بين الناس، ولذلك كان أكثر المتابعين له من الفقراء وضعفه الناس، وهم من قال فيهم هرقل عظيم الروم: «وهم أتباع الرسل» في حواره التاريخي الممتع مع أبي سفيان رضي الله عنه[٢].

وقد ذكر القرآن الكريم كلام قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[٣].

(٤) بشرية رسول الله المتصفة بكل صفات البشر، من سعد وحزن، وصبر وضجر، وجوع وشبع، ورزايا تنتابه، ومصالح تؤخره، كما لاقى الأنبياء قبله، قال تعالى حاكيا عن الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾[٤]، وقال له ربه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[٥].

(١) سورة البقرة، الآية (١٨٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص$).

(٣) سورة هود، الآية (٢٧).

(٤) سورة إبراهيم، الآية (١٢).

(٥) سورة النحل، الآية (١٢٧).

(١٤) الاصطفائية:

وهي شكل من المناصحة المخصوصة، أو الدعوة الفردية، بحيث يصفّي الداعية مجتمعه وثلته التي يعايشها، ويتخذ منها الأخلة الصادقين والرُفقة الجادين، ويستشير ويخالل ويستعين من يثق بدينه، وحسن صبره وجلده قال تعالى: **(وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي*هَٰرُونَ أَخِي)**[١].

وكثيرًا كان رسول الله ﷺ يقول: «**خرجت أنا وأبو بكر وعمر**»، و«**دخلت أنا أبو بكر وعمر**» وقد قال أبو القاسم ﷺ في بيان أثر الصديق والخليل: «**الرجُلُ على دِينِ خَلِيلِهِ، فلينظر أحدُكُم من يُخالِلُ**»[٢]. فمن طبيعة الإنسان أن يكتسب من البيئة التي يخالطها ويعيش مع أهلها، فيكتسب ما لديهم من أخلاق، وعادات وتقاليد، وأنواع سلوك، عن طريق المحاكاة والتقليد، وبذلك تتم العدوى النافعة، ولهذا قيل: إن الطبع للطبع يسرق.

وهذه الاصطفائية تحتاج إلى عقل راجح، وصفات روحية عالية، وأخلاقية اجتماعية، وقد تقدمت إشارات واضحات في ذلك.

وهذه الاصطفائية هي نواة التنظيم الفاعل، والتطور المجتمعي القائم على وعي المسئولية، والاضطلاع بالمهام، ونيابة القائد، وتدبير الأمور، وحل المشاكل والمعوقات، وأظن أن كل داعية مفكر سيهتم بذلك كثيرًا، كما هي كانت قضية بارزة في حياة رسول الله ﷺ، فلقد احتوى فضلاء الناس وخالطه صفوة الخلق من أمثال أبي بكر وعمر وخديجة وعثمان وعلي وطلحة والزبير والسعدين وأسعد بن زرارة ومصعب وأشباهم من الأصفياء الخلص والعاملين الفاعلين، الذين بانت أدوارهم في الرحلة الدعوية.

---

(١) سورة طه، الآيتان (٢٩، ٣٠).

(٢) السنن، لأبي داود، كتاب: الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس، رقم الحديث: (٤٨٣٣)، (٧/ ٢٠٤) وقال الأرنؤوط: «إسناده حسن»، والسنن، للترمذي، أبواب الزهد، باب، رقم الحديث: (٢٣٧٨)، (٤/ ٥٨٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

وبعيد وفاة رسول الله ﷺ والسابقين الأولين والمهاجرة الأوائل وسادات الأنصار، كان فيهم من الصفات التأثيرية والفاعلية الدعوية ما يدل على حكمة الاختيار النبوي، وأنهم رجال المستقبل، وحملة مشاعل الدعوة، فمثلًا أبو بكر ﷺ كان رجلًا خلوقًا، تاجرًا، كريمًا، وجيهًا بين الناس، واختياره سينتج للدعوة، وهو ما حصل، حيث أسلم على يديه سادات الصحابة كعثمان وطلحة والزبير، وبذل ماله كله في سبيل الله.

(١٥) الارتحال:

وهي الانتقال من بلد إلى بلد آخر، بسبب الظروف التاريخية الواقعة، والتي يشعر الداعية من خلالها بانسداد الأفق، وتعسر الوسائل، فيلتمس مخرجًا، ومكانًا فسيحًا لدعوته الجديدة، وتعرف بالهجرة والسفر.

وهذا أسلوب يأتي متأخرًا غالبًا في نشر الدعوات والأفكار؛ لأن عز الإنسان بلده، والمكان الذي يعرفه، ويحسن مداخله ومخارجه!

ولكن الظرف التاريخي والعامل الاضطهادي يجبر الإنسان على المفارقة والسفر وترك الديار والأحباب، كما قال ﷺ وهو خارج من مكة: «**لقد علمت أنك أحب أرض الله إليه، يعني مكة، ولولاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»(١).

ولقد استعمل رسول الله الهجرة مرتين إلى الحبشة عندما قال لصحابته ﷺ: «**إن فيها ملكًا لا يُظلم عنده أحد**»(٢)، وهاجروا مرتين، وكانت لهم خير مقام في أطيب عيش وجوار.

ثم أذن مرة أخرى المدينة، عندما سُدت عليهم السبل، وأحس بالخطر المحدق به وبصحابته، فرأوا أن الفرصة مواتية، لتأسيس منطقة جديدة للدعوة، هي المدينة المنورة،

---

(١) المسند، للبزار، رقم الحديث: (٧٨٧٤)، (١٤/ ٢٧٩) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٦١٦): «رواه كله البزار ورجال الأول رجال الصحيح».

(٢) السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبي محمد، جمال الدين، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م، (١/ ٣٢١).

وكان قد أرسل مصعب بن عمير ﷺ قبله، يوطد المكان ويؤسس النواة، حتى شاع الإسلام في كل أرجاء المدينة، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى كانوا يخرجون كل صباح ينتظرون، حتى تشتد الظهيرة، شوقًا وتلهفًا لمنظره ودينه الجديد، السمح الذي به عزهم وسعادتهم.

(١٦) المناظرة:

ونعني بها هنا النقد الفكري الموجه للأفكار والعقائد المجتمعية الخاطئة، وركناها العلم وقوة الحجة، والقدرة على تفنيد الشبهات، وهذه سمات جوهرية للداعية والمصلح الاجتماعي، وقد كانت مكتملة في رسول الله ﷺ، حيث نسف العقائد الوثنية، وسفه أحلام المشركين، واستهجن كيف تُصرف العبادة لله وحده، وهذا منهج أنبيائي قديم، **(قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا)**[١].

ولم تكن في مكة ثلاث عشرة سنة تشريعات كثيرة، بل كان التركيز الدعوي على جوانب التوحيد والعقيدة، وكل آيات القرآن المكي تقرر ذلك استدلالاً وتقريرًا وبرهانًا، وتفضح عوار العقلية الوثنية التي تتخذ آلهة من دون الله، وتجحد البعث رغم بروز الآيات الدالة على ذلك، كإحياء الأرض الميتة بالأمطار، قال تعالى: **(وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ)**[٢]، وقال: **(أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ)**[٣].

ولما جاء المشرك أبي بن خلف لرسول الله ﷺ بعظام بالية، وفتّه أمام رسول الله ﷺ قال: يا محمد هل يستطيع ربك أن يعيد تلك العظام البالية؟ قال: «**نعم يعيدها، ويدخلك النار**» وأنزل الله ردًّا على حجته تلك قوله: **(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ**

(١) سورة هود، الآية (٣٢).

(٢) سورة فاطر، الآية (٩).

(٣) سورة ق، الآية (١٥).

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

إلى آخر الآيات المقررات لقدرة الله، وحصول البعث في اليوم الآخر دون شك ولا ارتياب.

لم تصمد دعاوي المشركين ولا عقائدهم أمام البرهان القرآني والواقعي والعقلي، بل تهاوت جميعها، وأسلم منهم من أسلم حين تفكر في النور الجديد، وأعمل عقله في تلك العقائد التافهة، التي لا أصل لها سوى محض التقليد ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2].

وهي دعوى قديمة، مارسها الملأ الأولون مع أنبيائهم ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ﴾[3] فهي هياكل جامدة، لا تحس ولا تتحرك، لا تتأثر ولا تتكلم!! بل قال العربي الأول بمحض فطرته لما بال الثعلب على الغنم:

أربٌ يبول الثعلبان برأسهِ لقد ذلّ من بالت عليه الثعالبُ؟ !$$$

فهذه العقائد الشركية من الناحية العقلية لا تعتمد على المواجهة، ولا يؤيدها الواقع، وتصطدم مع الفطرة، فلماذا يأوي إليها الناس؟ !

ولابد في الدرس الدعوي من اعتبار أسلوب المناظرة، وتدريسه لناشئة الدعاة؛ لأنه يوحي بصلابة الحق، وقدرة المناظر على المواجهة مع كافة المعارضين، وكل من يتخوف المناظرة في الغالب، يكون منقوصًا أمام الجماهير، ويزعزع ثقته في نفسه،

(١) سورة يس، الآيات (٧٨-٨٣).

(٢) سورة الزخرف، الآية (٢٢).

(٣) سورة الأنبياء، الآية (٥٣).

واطمئنان الناس إليه، وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[1].

أي: بالعلم وحسن الترفق والعرض، فهو أسلوب دعوي قوي التأثير، وتكمن قوته في كونه سريع الانتشار، ويستقطب الجماهير، ويعلي من الحق المنتصر، ويوهن الأطراف المخالفة، ويحدث الاقتناع المجتمعي.

(١٧) التدرجية:

وهذا فرع الحكمة والعقلانية، حيث لا يمكن نثر كل البضاعة في وقت واحد، ولا مطالبة الناس فوق طاقاتهم، أو بكل شيء، أو بالوثبة السريعة !!

بل لابد من تأنٍ وتؤده، وتدرج واتزان، فيعزف الداعية على قضية واحدة، كالتوحيد مثلًا، وهي أصل الاستقامة الإنسانية، كما صنع رسول الله ﷺ حيث اكتفى بالإصلاح العقدي في مكة، وترفق بالناس، ومنعهم من المواجهة، وتريث في سن الشرائع، وتوالي الأوامر والنواهي.

بل كان يسير على معراج متدرج بحيث يأسر الناس بدعوته، ويجعل لهم مساحة في التفكير والقبول، إذ إن المجتمع الجاهلي منحرف عقائديًّا، ولديه قيم جاهلية فاسدة، فلا يمكن زحزحة ذلك إلا بفن دعوي متدرج، يركز أولًا على العقيدة، ويعتمد الحجة والعقل بالبرهان الواضح، ويأخذ الناس على فترات وفترات، ويعالج القضايا الجوهرية والمنكرات الكبرى أولًا، ثم يأتي إلى غيرها وما يليها، وإذا تأملنا القرآن المكي وجدنا أنه كان يركز كثيرًا على قضايا التوحيد والعقيدة واليوم الآخر، فيعلن استحقاق الباري تعالى للعبادة، ويثبت الساعة والبعث، وصفات الجنة والنار، ووجوب الإعداد لها، ويزدرى الأصنام والمعبودات المتخذة من دون الله تعالى، وأنها عديمة الجدوى والأثر، ويجلي صفات الباري وأسماءه الحسنى، ويذكر أخبار المكذبين من الأمم السابقة، وما انتهى إليه أمرهم من التدمير والفناء، ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا

(١) سورة النحل، الآية (١٢٥).

مَسَٰكِنُهُمْ)[1]، وقال: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[2].

(١٨) الثبوتية:

وهى حالة من الرفض المستعصي، والاستمساك التام بمبادئ الدعوة وثوابت الرسالة. قال تعالى: (فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[3]، فالثبات على الحق مطلب كل داعية، لاسيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الابتلاءات والفتن، وتنوعت وسائل الإضلال والمحن، فينبغي على الداعية الحرص على تحصيل أسباب الثبات. وقد سُووم رسول الله ﷺ بالمال والجاه، والنفوذ والإغراء، فأبى وأصر على الدعوة والإصلاح وتبليغ رسالة الله تعالى. قال تعالى في مدح المؤمنين الصادقين: (وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا)[4]

نحا القرشيون والوثنيون مع الدين الجديد كل المناحي، وبذلوا له أنفس ملاذهم، ولكنها اصطدمت بالنفسية النبوية المحمدية الشامخة، التي استعصمت بذكر الله، وأبت كل الإغراءات، راضية بفضل الله ورحمته.

إن مثل هذه الثبوتية النبوية كالعقدة المغروزة في صدور المشركين، تجعلهم يستشعرون الهزيمة، ويحسون بالحقيقة، ويفقدون صبرهم تجاه الدعوة الجديدة؛ لأنها تحدّ واضح مكشوف، تؤكد صدق رسول الله ﷺ ومحبته لربه تعالى، وإيثاره لدعوته، واحتماله لأجلها كل الشدائد والمحن.

ولذلك قام المشركون بأذيته، ثم حاصروه، وظنوا أنهم بلغوا منه، فما ازداد إلا قوة وصلابة، وأدركوا أنه سيظهر وينتصر، ولكنهم كابروا وعاندوا. (وَجَحَدُواْ بِهَا

(١) سورة الأحقاف، الآية (٢٥).

(٢) سورة النمل، الآية (٥٢).

(٣) سورة الزخرف، الآية (٤٣).

(٤) سورة الأحزاب، الآية (٢٣).

وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ)[1].

فالثبات على المبدأ أو الفكرة من الركائز والمحطات الأولى في حياة الداعية، فعليه أن يتعلمه من فلسفة الدعوة ومساراتها، ويتعظ بما حكاه الله تعالى عن الثابتين. قال تعالى: (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا*هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)[2].

وعليه أيضًا ويسأل الله دائمًا الثبات وعدم الزيغ والتبديل، قال تعالى في حق رسوله ﷺ: (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً)[3].

وكان ﷺ كثيرًا ما يدعو بهذا الدعاء العظيم: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[4]، وصح عنه قوله ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»[5]، فالثبات على الحق من أعظم مقومات الداعية، وسبب في نجاح دعوته وقبولها، ومما لاشك فيه أن حاجة الداعية في هذا العصر للثبات أشد من حاجة الداعية فيما سبق، وذلك لكثرة أنواع الفتن والمغريات والشبهات، حتى أضحى الدين غريبًا.

---

(١) سورة النمل، الآية (١٤).

(٢) سورة الكهف، الآية (١٥).

(٣) الإسراء، الآية (٧٤).

(٤) السنن، للترمذي: أبواب القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم الحديث: (٢١٤٠)، (٤/ ٤٤٨)، وقال: «هذا حديث حسن».

(٥) الصحيح، لمسلم، كتاب: القدر، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم الحديث: (٢٦٥٤)، (٤/ ٢٠٤٥).

فبمثل هذا التزود الإيماني والفقه الاعتباري لسير المصلحين، تثبت المسالك إلى الله حتى يظهره الله تعالى عليهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[1].

وفي حديث خباب ﷺ الذي يشع بكل معاني الثبات والصبر، والثقة بوعد الله، والتحدي للأعداء، كما قال: «**والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[2].

والثبوتية إنما ترتكز على الإيمان والصبر الذي يحملها على محبة الله، وتجاوز الصعاب، والتلذذ بالمرارات في سبيل الدعوة، قال تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3].

(١٩) اليقينية:

هي روح مفعمة بالإيمان، والثقة بالله وبنصره ووعده، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[4]، وقال ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[6].

فمهما اشتد البلاء، وتفتقت الدنيا عن كروب واضطهادات ومستقبل أسود، فإن إيمان الداعية لا يتناقص، ويقينه لا يبلى، وصبره لا ينفد، بل ما تزيده تلك الكروب إلا يقينًا إضافيًّا بدنو ساعة الحسم، واقتراب فجر الظهور والتمكين.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (٣٥).

(٢) الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث: (٣٤١٦)، (٣/ ١٣٢٢).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٤٦).

(٤) سورة المجادلة، الآية (٢١).

(٥) سورة الروم، الآية (٤٧).

(٦) سورة الروم، الآية (٦٠).

ومن دعائه ﷺ: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا**»[(١)]، وقال تعالى: **(حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ)**[(٢)].

وكانت عائشة رضي الله عنها تفسر هذه الآية على أتباع الرسل، وليس الرسل أنفسهم، وتنزههم أن يقعوا في منزلق كهذا، فعروة بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: **(حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ)** قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا. فقلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كَذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر[(٣)].

وقال تعالى: **(...وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ)**[(٤)] وقد انتصر لمذهب عائشة رضي الله عنها شيخ المفسرين ابن جرير رحمه الله، وفي الآية وجوه أخرى.

فهذه الآية تجلي السابقة، والمراد شدة الوقع على الداعية، إلى درجة تذمر الأتباع، واستبطاء النصر، وليس أن الدعاة يشكّون في وعد الله، وأن العاقبة للمتقين، والدائرة على الكافرين...كلا!! بل إنهم أكمل الناس يقينًا، وأعلاهم استيقًانًا، وكذلك يجب أن

---

(١) السنن، للترمذي، أبواب الدعوات، باب، رقم الحديث: (٣٥٠٢)، (٥/ ٥٢٨) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) سورة يوسف، الآية (١١٠).

(٣) الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ**﴾، رقم الحديث: (٣٢٠٩)، (٣/ ١٢٣٩).

(٤) سورة البقرة، الآية (٢١٤).

يكون أتباعهم، يشهد لذلك ويقرره حديث خباب ﷺ لما شكوا إلى رسول الله شدة ما يلاقونة من البلاء، قال لهم: «**لقد كان الرجل فمن كان قبلكم يؤتى به فيحفر له، ثم يؤتى بالمنشار، فيشق من رأسه إلى أسفله، ويمشط بأمشاط الحديد، مادون عظمه من لحم وعصب ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»(١) فالمسألة سنن يجريها الله في الأرض، ويمحص بها العباد، وينقي بها الصف إلى أن يبلغ العلم مداه، فتأتى مرحلة النصر والفرج والفتح المجيد.

وفى هذا النص الحكيم ذم الاستعجال، وأنه ليس من ديدن الدعاة إلى الله، وقد يورث النقص والضعف، وترك العمل، والله الموفق.

ومن شأن الروح اليقينية أن تصنع المستقبل، وتتلذذ بالتفاؤل، وتندحر عنها كل صور اليأس والإحباط، ولا تخالجها الهزيمة.

وإذا وعى الداعية هذه المقدمة راجع نفسه، وجرد إيمانه، وتحلى بالصبر، وكان ذا زاد روحي متين، يمكنه من تخطي العراقيل، وكسر السيف الصقيل، وهزيمة القمع الوبيل، والله ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم.

(٢٠) العدالــة:

وهى محتوى مضمون الرسالة المحمدية، حيث جاءت لإحقاق العدل، وردع الظلم والانتصار للمظلومين، وإطعام الجائعين المحرومين، وجعل الناس سواسية محكومين بنظام رباني، لا يفرق بين كبير أو صغير، ولا شريف أو وضيع، أو رئيس ومرءوس، وهذه بُغية أتباع الرسل، الذين غلب عليهم الضعف والمسكنة، ففي قصة هرقل مع أبي سفيان: «قال هرقل: من يتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم ! فقال: وهم أتباع الرسل»(٢). ولذلك مقصد الفقيـر والضعيف والمظلوم أن يحيا حياة كريمة، ينعم من خلالها بالحقوق، ولا يظلم ولا يؤكل عرقه، ولا

(١) تقدم تخريجه (ص$).

(٢) تقدم تخريجه (ص$).

يستغل ضعفه وهوانه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[3].

وقال ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «**تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره**»[4]، وقوله ﷺ: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى**»[5]، وقوله ﷺ: «**إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[6].

---

(١) سورة النساء، الآية (٥٨).

(٢) سورة الحديد، الآية (٢٥).

(٣) سورة الحجرات، الآية (١٣).

(٤) الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب: الإكراه، باب: يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه، رقم الحديث: (٦٥٥٢)، (٦/ ٢٥٥٠).

(٥) المسند، لأحمد بن حنبل، رقم الحديث: (٢٣٤٨٩)، (٣٨/ ٤٧٤) وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(٦) الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب: الأنبياء، باب: ، رقم الحديث: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، (٣٢٨٨)، (٣/ ١٢٨٢)، والصحيح، لمسلم، كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم الحديث: (١٦٨٨)، (٣/ ١٣١٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «عامة ما نهى عنه الكتاب والسنة من المعاملات يعود إلى تحقيق العدل، والنهي عن الظلم: دقه وجله، مثل أكل المال بالباطل، وجنسه من الربا والميسر، وأنواع الربا والميسر التي نهى عنها النبي ﷺ: مثل بيع الغرر، وبيع حبل الحبلة، وبيع الطير في الهواء، والسمك في الماء، والبيع إلى أجل غير مسمى، وبيع المصراة، وبيع المدلس، والملامسة، والمنابذة، والمزابنة، والمحاقلة والنجش، وبيع الثمر قبل بدو صلاحه، وما نُهي عنه من أنواع المشاركات الفاسدة، كالمخابرة بزرع بقعة بعينها من الأرض، ومن ذلك ما قد تنازع فيه المسلمون لخفائه واشتباهه. فقد يرى هذا العقد والقبض صحيحًا عدلاً، وإن كان غيره يرى فيه جورًا يوجب فساده، وقد قال الله تعالى: **(أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)**[1]، والأصل في هذا أنه لا يحرم على الناس من المعاملات التي يحتاجون إليها إلا ما دل الكتاب والسنة على تحريمه، كما لا يشرع لهم من العبادات التي يتقربون بها إلى الله، إلا ما دل الكتاب والسنة على شرعه؛ إذ الدين ما شرعه الله، والحرام ما حرمه الله؛ بخلاف الذين ذمهم الله، حيث حرموا من دين الله ما لم يحرمه الله، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، اللهم وفقنا لأن نجعل الحلال ما حللته، والحرام ما حرمته، والدين ما شرعته»[2].

وقال أيضًا: «فالكتاب والعدل متلازمان، والكتاب هو المبيّن للشرع؛ فالشرع هو العدل والعدل هو الشرع، ومن حكم بالعدل فقد حكم بالشرع، ولكن كثيرًا من الناس ينسبون ما يقولونه إلى الشرع وليس من الشرع؛ بل يقولون ذلك إما جهلاً وإما غلطًا

(١) سورة النساء، الآية (٥٩).

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨هـ، (ص ١٢٤، ١٢٥).

وإما عمدًا وافتراء، وهذا هو الشرع المبدل الذي يستحق أصحابه العقوبة؛ ليس هو الشرع المنزل الذي جاء به جبريل من عند الله إلى خاتم المرسلين، فإن هذا الشرع المنزل كله عدل ليس فيه ظلم ولا جهل»[(١)].

ومثل هذه المبادئ الشرعية العدلية والحقوقية كافية في انجذاب الناس إلى هذا الدين الجديد، والإعجاب بشرائعه، والدخول فيه، فالمفاضلة في الإسلام بالدين والتقوى، وليس بالحسب ولا النسب، ولا بالمال والجاه، ولا بالعرق واللون!!

ولهذا حفظ رسول الله ﷺ حقوق الناس، ورحم الفقراء، وآوى الأيتام، وخدم الموالي، وأنصف النساء، وداعب الأطفال، وأقام العدالة بين الناس، حتى اكتسب حبهم وولاءهم، وانتشر دينه في الآفاق، وعرفوه في الجاهلية بالعدل والأمانة وصدق المبدأ وذم الكذب، والجود وبذل النفس والجاه، يهتم بمخابر الناس، لا بظهورهم، يحفظ الجميل، ويثيب عليه، وينجز الموعد، ويصل الرحم، ويتواضع للخلائق.

وكان نائبه وصاحبه على الدوام أبا بكر ﷺ التيمي، ليس من بطون قريش المشاهير، وجعل مؤذنه بلالًا ﷺ، وهو حبشي، وقال فيه: «**إني سمعت دفَ نعليك في الجنة**»[(٢)]، وهو الذي قال فيه عمر ﷺ: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا»[(٣)]!!

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٣٥/ ٣٦٦).

(٢) الجامع الصحيح، للبخاري، أبواب التهجد، باب: فضل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار، رقم الحديث: (١٠٩٨)، (١/ ٣٨٦)، والصحيح، لمسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: من فضائل بلال ﷺ، رقم الحديث: (٢٤٥٨)، (٤/ ١٩١٠).

(٣) الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب بلال بن رباح مولى أبي بكر رضي الله عنهما، رقم الأثر: (٣٥٤٤)، (٣/ ١٣٧١).

واستعمل أسامه بن زيد على جيش فيه أبو بكر وعمر ﷺ، لما رأى من كفاءته ومقدرته وما يؤهله لذلك، وقال: «**إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة**»(١).

تم ما يراد تعليقه هنا حول «مقدمات التغيير النبوي»، سائلًا المولى الكريم حسن الفهم وصحة القصد وجميل العاقبة، إنه هو البر الرحيم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

(١) الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، رقم الحديث: (٣٥٢٤)، (٣/ ١٣٦٥)، والصحيح، لمسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما، رقم الحديث: (٢٤٢٦)، (٤/ ١٨٨٤).

خاتمة البحث

تبين للباحث في السيرة النبوية ومسالك التغير النتائج التالية :

١ـ إن نجاح دعوة النبي صل الله عليه وسلم سبقته مقدمات وترتيبات منهجية .

٢ـ أن المنهج النبوي يأخذ بسنن الكون وما وضعه الله من قوانين وسنن .

٣ـ امتلاء السيرة النبوية بالشواهد المنهجية وخطط التغيير الإستراتيجية .

٤ـ حاجة الدعاة إلي الله والرجوع كثيراً إلى السنة والسيرة والارتشاف من ينبوعهما .

٥ـ ليس شرطاً تطبيق تفاصيل السيرة ولكن المهم الاستفادة من معالمها العامة .

٦- جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين العوامل الإيمانية والمادية في التغيير والدعوة.

٧- أن هذه المقدمات أشبه ما تكون بالاستراتيجيات المرتقبة، والتي تتطلب وقتا طويلا وأمدا بعيدا.

المصادر والمراجع

١- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

٢- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ،٢٠٠٠م.

٤- جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٥- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٦- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، لعبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٧- زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.

٨- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٩- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

١٠- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨هـ.

١١- السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبي محمد، جمال الدين، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م.

١٢- فيض القدير شرح الجامع الصغير، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

١٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤١٢هـ.

١٤- مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١٥- مسند البزار (البحر الزخار)، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٩م.

١٦- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.

١٧- المسند، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

١٨- المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٩- المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، د.ت.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٦٦١
(١) الدعوة	٦٦٤
(٢) المناصحة	٦٦٦
(٣) السرية	٦٦٧
(٤) التنظيم	٦٦٩
(٥) الروحانية	٦٧١
(٦) الجماهيرية	٦٧٥
(٧) الربانية	٦٧٦
(٨) المنطقية	٦٧٨
(٩) المصداقية	٦٨٠
(١٠) الجاذبية	٦٨١
(١١) الدائبية	٦٨٤
(١٢) الاجتماعية	٦٨٥
(١٣) الواقعية:	٦٨٦
(١٤) الاصطفائية	٦٨٨
(١٥) الارتحال	٦٨٩
(١٦) المناظرة	٦٩٠
(١٧) التدرجية	٦٩٢
(١٨) الثبوتية	٦٩٣
(١٩) اليقينية	٦٩٥
(٢٠) العدالة	٦٩٧
الخاتمة	٧٠٢
المصادر	٧٠٣
فهرس الموضوعات	٧٠٦